

التوحيد: نشوء وارتقاء

اشرف بروجردى*

الملخص

عندما ندرس أسس العبودية في الإنسان وعلى صعيد كل الكائنات المتواجدة في عالم الكون، نستشرف إليها بوصف بالخالق والرب والقادر والواحد والأحد والذي لا يؤين بأين ولا يستوعبه ظرفاً الزمان والمكان حيث تواجهه خارج نطاقى البادرتين المؤمى إليهما وإنما يقضى حاجة الإنسان إلى عبودية إلهه، يكن على صلة مباشرة بطبيعة ارتباط المخلوق بالخالق أكثر من معرفته به وهذا بدوره يؤدي إلى اقتناع الإنسان بإله واحد. لم تتبلور فكرة التوحيد من حاجة المخلوق إلى عبودية الخالق إذ من الممكن أن يسلك المخلوق طريقاً يؤدي به إلى متاهات تكن نابعة عن استدراك قد يسلك سبيلاً خاطئاً وبناء على ذلك حين استعراض تاريخ الفكر الإنساني لبلورة معرفة المخلوق عن الخالق، نلاحظ تواجد الوجدانية والثنوية والتثليث وأحياناً عبادة الأصنام وحتى نفى الإله بالمرّة وبالتالي نفى العبودية.

الكلمات الرئيسية: التوحيد، الوثنية، نفى الألوهية، أصالة العقل، الدهرية، الثنوية، التثليث.

١. المقدمة

تعتبر العبودية ترجماناً لإقتناع الإنسان بوجود إله خالق مقتدر له الحكم يفعل ما يشاء ويقدر ما يريد. ولقد برزت معالم سلوك الإنسان بصور مختلفة منذ بدء الخليقة ومن حين تواجهه على وجه البسيطة حيث بادرت الأمم من خلال طقوسها بأداء مدى ولائها للمعبود وترسيم سبل العبودية. فى خضم هذه التغييرات نلاحظ تواجد رسل دعوا إلى عبادة الرب وأسفروا عن

* عضو الهيئة العلمية بأكاديمية العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية

تاريخ الوصول: ١٣٩٢/١/٢٠، تاريخ القبول: ١٣٩٢/٣/١٥

تمسكهم بعبودية الخالق و وحدانيته ومهدوا الدرب لعبادة إله لن يستوعبه الزمن ولم يحيطه المكان وتتأتى طاعته عبر معرفة بنيت أسسها على ركائز الحقيقة ونادوا بشريعة تمهد الطريق لهذه المعرفة إذ تنجذر شعاب المعرفة فى سلوك تتصف بالطريقة حيث من الممكن أن يتعاطف الإنسان مع الحقيقة عبر الطريقة ولكن يبدو أنه من المستحيل مناقشة الحصول على الحقيقة عبر الشريعة وحدها.

عبارة أخرى لقد أكدت هذه النخبة المرسله بأن العبودية تتبلور عبر قبول شريعة تنجذر أسسها فى الطريقة إذ أن مسالك الطريقة لن تكن على منأى من الشريعة ولكن يبدو لنا أن هنالك تمايز طفيف بين مفهومى الشريعة والطريقة حيث من الممكن الوصول إلى الحقيقة عبر الطريقة ولكن من المستصعب الحصول على الحقيقة عبر الشريعة وحدها إذ أن الشريعة تسرد قبول طقوس رسمتها مسارات هذه الأخيرة.

يبدو أن الفلاح يحالف من استمسك بشريعة بنيت أسسها على مسالك الطريقة التى تتبلور من خلال المعرفة حيث أن الشريعة وحدها تكن عبارة عن معتقدات مجردة من معانيها لو لم تتبنى أسسها على ركائز من المعرفة التى تتبلور فى مسالك الطريقة والفلاح يحالف من استمسك بشريعة تبلورت على أسس معرفة تتجلى من خلال أضواء الطريقة.

بيد أن دعوة الأنبياء لعبودية الإله الواحد خرجت عن صراطها القويم عبر الزمن و إثر مناقشات الآخرين، و سبقت إلى الثنوية والشرك وعبادة الأصنام أحيانا؛ إذ أن الناس لم تكن لهم استيعابات متكافئة متساوية مع بعضها البعض لإستيعاب المعرفة بالكامل حيث أن هذه الأخيرة تكن فى تطور نحو تكامل مستمر تتجلى ثمارها فى عرفان يستوعبه الإنسان حسب طاقاته البشرية. نلاحظ أن العرفان يتبلور عند سالكى الطريقة اثر علم حضورى يتجلى من خلال إستبصار ومشاهدة يؤديان إلى معرفة الخالق. والمعرفة بدورها تكن عبارة عن معرفة الآثار لا الذات الإلهى حيث أن معرفة ذات الألوهية تعتبر من المستحيل و تكن فوق طاقات الفكر البشرى. فى ضوء هذه المعرفة تبرز إلى الوجود معرفة الانسان بنفسه وهذا يؤدى إلى معرفة الخالق حيث أن: من عرف نفسه فقد عرف ربه. (نهج الفصاحة: حديث رقم ٥٤٩٤) فلنعلم أن الكون بأكمله فى جهد و عمل كى يكتسب الإنسان هذه المعرفة بحذاقها. وبما أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى لديه طاقة فذة لإستيعاب سر الوجود وإماطة اللثام عن وجه الحقيقة فى لحظات عابرة ويستلزم سرد ذلك كرارا تواجده فى هذه اللحظات ألا وإن لكم فى الدهر نفحات، ألا فتعرضوا لها (المجلسى، ١٣٩٦: ٧ / ٢٢١).

إن الآنات المتحلية بحلاوة وجود الإنسان تتفاعل مع الكيان الإنسانى وتبلور كينونته بأحلى

آيات الكون و لن يعوضها الإنسان بأى بادرة أخرى حيث «إن أهل الجنة لا يتحسرون بشئ من الدنيا كتحسرتهم على ساعة مرت من غير ذكر الله» (نهج الفصاحة: حديث رقم ١٠٩٧) وعلينا أن نسأل هنا هل بلورة هذه اللحظات لها معطيات خاصة؟ وهل ترتبط بتواجد إرادة فذة؟ أو إنها نابعة عن مصدر عين قياض لن يستوعبه الكل؟ والجواب هو أن هذه الحالة تبرز اثر معادلة الأخذ والعطاء وهي معادلة ذات طرفين؛ إذ أن الوجود الإنساني يمتلك قدرة استيعاب الفيض الربوبى واكتساب العرفان والمعرفة شريطة أن يعرضها الإنسان للنفحات القدسية وهذه بدورها ترتبط بالارادة الإنسانية والتي تنبع من ذاتنا وفي هذه الحالة نلاحظ أن الذات الربوبى لن يهملنا ولو للحظة عابرة و لن يرمينا فى بوتقة النسيان بل يفتح لنا مصاريع العرفان والمعرفة بمفاتيح رحمته لأن «من أخلص لله أربعين صباحا، ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» (غررالفصاحة، حديث رقم ٥١٢٢).

نلاحظ إثر هذه الحقيقة الصارمة أن جهودنا وسلوكنا لن تذهب سدى بل تودى إلى الحقيقة «سُئِرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» (فصلت: ٥٣). والمراد من الذكر الحكيم هو أن الإنسان يمتلك طاقة استيعاب حقيقة العالم بحذافيرها لكن ظاهرة كهذه تتطلب سعى الإنسان و أى سرّ يكمن فى هذا الأخذ والعطاء والذي قلّ طالبيه وساعيه على حد سواء وقلّ الذين يتفكرون فى مؤلفات العالم ومكوناته بالرغم من تعاطيهم المستمر مع معطيات وحقائق العالم الذى يحيطهم ولو أراد الإنسان أن يستوعب مكونات الخليقة فلينظر أولا إلى الآفاق ثم يتفكر فى الخلق ومن بعده يستبصر فى نفسه كى يتقرب إلى الحقيقة البحتة ويستسقى من فكره الذى يضئ كيانه ويجلى روحه فالفكر مستوعب من العقل والعقل يهدى إلى عبودية الرحمن حيث أن «العقل ما عُبدَ بهِ الرّحمان واكتسبَ بهِ الجنان» (غرر الفصاحة: حديث رقم ٧). ثم بعد ذلك يعرض الإنسان مكتسباته المؤاتية كى يستمد الخلق منها ويسترشد بها ويتبع أحسن القول وينقى خيره ما قيل بهذا الصدد «فبشر عبأدى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه» (الزمر: ١٧، ١٨).

على هذا الأساس نلاحظ مداولة التوجه إلى العقلانية فى الأوساط البشرية حيث أن ذوى العقول والنخبة المتفكرة يبادرون بتنظيم سلوكهم على ضوء مكتسبات العقل؛ فالفكر الذى ينبع من المعرفة يستوعب الحقيقة وتراقفه المحبة والحب لأن المعرفة تعتبر بداية العشق ومدخلا اليه.

نحاول فى بحثنا هذا أن نتطرق إلى كيفية نشوء التوحيد وعبادة الإله الواحد منذ فجر الخليقة بغية ترسيم خارطة الطريق إلى الوحدانية.

٢. هل التوحيد مضمّر في الذات الإنسانية و فطرته؟

عندما نتصفح المستندات المكتوبة قبل ميلاد المسيح عليه السلام بألفى عام نلاحظ بالرغم من تواجد مظاهر الوثنية في الآثار المكتوبة لتلكم الأمم كتقديم القرابين لآلهتهم أو اختصاص الهدايا والتذر لهم أو طلب الغفران ورفع حوائجهم منهم أن المخطوطات المتبقية من هؤلاء الأقوام تشيد إلى عبودية الرب الجليل و الاعتراف بوحدانية الأله. فالمستندات المتبقية من أيام فراعنة مصر أى ألفين عام قبل ميلاد المسيح عليه السلام تنوّه إلى: «إن الله هو الواحد الأبدى، أنه أبدى غير محدود، وهو يدوم إلى أبد الدهر وقد دام طول أزمان لأتخصى وسوف يدوم طول الأبدية كلها» (الصباغ، الأحناف، د.ت، ص ٣١). ونلاحظ نفس المفهوم مذكور فى آى الذكر الحكيم: «ولئن سئلتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله» (الزمر: ٣٨). وهكذا نلاحظ نفس المفهوم المذكوراً فى سورة المؤمنون فى آيتى رقم ٨٤ و ٨٩ وكذلك فى الآية التاسعة من سورة الزخرف و التى تشير إلى الكون وخلقهم ومكونات الخليقة حينما تطرح الآية أجزاء الخليقة وتساءل المشركين والكفار من الذى خلقهن يقولون الله. ومفهوم كل ذلك أن العبودية تكون جزءاً من فطرة الإنسان وتكون متساوية لدى البشر وثانياً أن الاعتراف بوجود إله واحد يكون مضمراً عند البشرية جمعاء «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريبتهم وأشهدهم على أنفسهم ألسن ربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين» (الاعراف: ١٧٢). فيكون بذلك نتاج هذه المعطيات الدينية أن نعتبر البشرية بأجمعها عباد الله وموحديه بل يمكننا القطع بأن ما ظهر من الشرك و الإلحاد تكن نابعة عن مسار خالفت الفطرة البشرية وذهبت إلى ما هو تقيض من الوحدانية وبرزت إثر ما تبنتها البشرية حين سلكت دروباً شككت فى التوحيد وتبنت الوثنية بعيد ما تناثرت عن التوحيد.

وهكذا نلاحظ أن الإنسان قد أقرّ بوحدانية الإله منذ تواجده على وجه البسيطة من منطلق فطرته. إذا علينا أن نتساءل منذ أى زمن برزت فكرة الشرك وتجلت معالم الوثنية؟ وعلى أية معطيات خالف الانسان بوادر فطرته؟ وكيف يمكننا اجابة هذا السؤال بأن منذ أى وقت ظهر الخلاف فى الفكر البشرى كى يتناهى عن الوحدانية والتوحيد ويجعل لاله شريك؟ على هذه الوتيرة نلاحظ أن الإنسان عند نشوئه وتعلقه بحياة بسيطة كان يتمسك بالوحدانية فى قرارة نفسه فكيف تحول إلى عبادة الأصنام وبادر بنفى الإله الواحد الأحد؟ وفى ضوء أية معطيات برزت الوثنية فى معتقداته؟ و ظهر الشرك فى بوتقة وجوده؟ وكيف يمكننا الإجابة على هذا السؤال الكامن فى وجودنا بأن منذ أى وقت برز الخلاف فى الاعتقاد بأن الله هو الواحد الأحد الفرد و توجهت البشرية نحو الشرك؟ وهل يمكن القول بأن ظهور الرسل فى حياة الإنسان ودعوتهم إلى

التوحيد من خلال المعرفة وعلى أساس التنوير ونفى ما عداه كى تتكامل معرفتهم عن الخالق والمخلوق وتستكمل الصورة عندهم بدوره أصبح مصدر نقاش وتضارب الآراء؟ أو إن فهم الإنسان واستيعابه من فكرة الألوهية هو الذى دفع به إلى الإختلاف فى كيفية عبوديته حيث ادعى بضرورة رؤية الرب كى يعبد؟ أو حسب بعض الآراء والرؤى برز الخلاف على ركيزة اختلاف مصالح الخلق؟

يعتقد العلامة السيد الطباطبائي أن الخلافات تتصنف وتكون على ضربين فمنها ما هو نابع عن الطغيان و الظلم اللذان تتجذران فى ظاهرة الدين وفى نفس الوقت يمكن أن يكون متجذراً فى الفطرة والغرائز البشرية والخلاف الثانى الذى يتشعب من أمور دنيوية أدى إلى التشريع و وضع القوانين الدينية حيث بادر الرب إلى تسوية الخلافات البشرية بواسطة الشريعة ونور لهم الدرب المستقيم والصراط القويم إذ يهدى لصراطه المستقيم أياً يريد ومن يشاء (الطباطبائي، ١٣٦٣: ٣/ ٢١٤). وهل يمكن القول أن ارتقاء الوعى عند البشر أدى إلى نشوب الخلاف بينهم؟ لعل الآية القرآنية الكريمة ترشدنا إلى هذه الفكرة حيث: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأُنزِلَ مَعَهُمَا الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ بِالْحَقِّ بآذَنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (البقرة: ٢١٣). وكذلك فى سورة البينة حيث تسرد الآية: وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (البينة: ٤). وبذلك نلاحظ أن البيئنة ظهرت للذين نزل الكتاب عليهم وبعد نزوله برز الخلاف بينهم. ونحن نتساءل هل البيئنة التى كانت فصل الخطاب هى التى أدت إلى نشوب الخلافات؟ فى حين أن البيئنة تعتبر الدليل الواضح فما هى علة اعتبارها منطلقاً للخلاف؟ يرى المفسرون أن هذه الحالة تتجذر فى الحالات النفسية و خاصة الحسد و من الصعب حصول دليل قرآنى لهذه الحالة إذ لا يمكن استنباطها من آى الذكر الحكيم بل ينوّه المصحف الكريم بشكل عام إلى نشوب الخلاف أثر ظهور هذه الحالات وعلى أى حال فإن ارتقاء الفهم البشرى وازدياد المعرفة لدى الإنسان يؤدى بشكل عام إلى استنباطات مختلفة واستدراكات متضاربة عن مفهوم الدين.

نلاحظ أن الله يشيد القول أن أول خلاف نشب فى البشرية ارتفع اثر التمسك بالدين حيث تمكن هذا من تقديم حلول لهذا الخلاف وفى نفس الوقت ينوّه بأن هذه الآلية أصبحت رويداً رويداً منطلقاً لخلافات أخرى و وجدت أرضيتها فى الدين نفسه. على أن حاملى هذه الخلافات كانوا هم دعاة الدين وحملته فأخذتهم الحمية إلى متاهات نشبت من نفسانياتهم التى كانت تدعوهم إلى الظلم و الطغيان وهذا المفهوم يستسقى من آى الذكر

الحكيم: «وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» (يونس: ١٩) وكذلك من الآية: «وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَرِيْبٌ» (الشورى: ١٤). ولعل ظهور الأنبياء بين الناس حصل بغية تمهيد الدرب للوصول الى الحقيقة وتنوير الفكر البشرى لتطويع سبل الإنارة والإطاحة بالخلاف المتواجد لدى البشرية جمعاء. وهذا ما يعبر عنه جان ناس حين يقول: وهب الدين فى صورته البدائية للإنسان طاقة استدراك معالم الطبيعة والتعرف على ما حوله من القوى الطبيعية والنفوس البشرية البائدة وأرواحهم وكذلك الطاقة الكامنة فى وجوده كى يسلك دربا متمايزا يؤدى إلى تأسيس منظومة اجتماعية عبر مسالك خاصة. وبعد مضى زمن على تلكم البادرة تمكن الفكر البشرى أن يتطور وتعرف الإنسان على علل الحوادث الطبيعية ونتائج الظواهر من خلال التجارب وتبلورت علاقة الإنسان بما يحيطه فى نطاق واسع وتعاطف الفكر البشرى مع ناشئة «أرباب الطبيعة» و «كبار الالهة» واثار هذا السلوك إلى فكرة الإله الواحد (ناس، ١٣٥٤: ٥).

نلاحظ من جهة ثانية أن الله يرى هذا الأمر شيئاً متأتياً مع الفطرة الإنسانية حيث معرفة الرب تتبع من صميم الوجود الذى هو صنع الرب: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (الروم: ٣٠). تدل مفاد هذه الآية الكريمة على الجمع بين الفطرة والجهل حيث ترشدنا من جانب إلى أن الدين يضم فى الفطرة البشرية ومن جانب آخر تشير إلى أن أكثر الناس لا يعلمون ولا يمكن الجمع بين هاتين الظاهرتين فكيف الفطرة والجهل؟ إذا يمكن القول بأن نشوء الإختلاف فى الدين ومجانبة الطريق القويم والهدى المستقيم هو نتاج جور العلماء الذين كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه و يبادرون بتأويل كتاب الله (الطباطبائي، ١٣٦٣: ٢ / ٣٣٤). إذاً فالخلاف فى الدين لن تتبع من الفطرة لأن الدين يكون أمراً فطرياً و الفطرة لن تتواءم مع الخلاف ومن جانب آخر فإن الفكر وكيفيته يبلور لدى الإنسان طاقة محدودة يصدنا عن تبديل نوعية سرد أفكارنا وتغييره بأشكال أخرى حسب تعبير ميشال فوكو الذى يقول: «محاكاة الفكر فى الصمت هو فى الواقع ضرب آخر من الفكر لن يتطرق له الإنسان قط» (فوكو، ١٣٨٢: ٢٨). إلا إذا كان مسار الفكر مهدياً نحو استدراك الحقيقة واكتساب معرفة الكون وخالقه و لذلك نلاحظ أن المصحف الكريم يضع العلماء فى عداد الألوهيين والمتعرفين الحقيقيين على وجود الخالق: «أَنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ» (فاطر: ٢٨).

٣. تأريخ الألوهية و التوحيد

لا تكون لدينا صورة واضحة عن فجر الألوهية والتوحيد ولكن توجد إيماءات عن عبادة الرب فى كل الأزمنة والعصور. دعونا نفترض أن الإنسان فى بداية الخليقة من منطلق الفطرة كان موحدًا لكن تبدلات الأحوال أدت به إلى أن يصبح مشركًا أو وثنيًا إثر التفكير فى معطيات الكون وعدم استطاعته من تقديم حلول مناسبة الأسئلة كانت آن تطرح نفسها عليه حول مستجدات الخليقة ولأن مدى استدراك الإنسان كانت تشوبه النقائص فالأجوبة ظهرت غير متكاملة وبذلك كثرت الفروض وزادت فى الطين بلة إذ أن الأجوبة أتت على مقدار استيعاب الإنسان عمًا يحيط به وإثر ذلك نمت وتطورت الفروض بهذا الصدد. على هذا الأساس إن إحدى الفرضيات البشرية حول خالق الكون جاءت بتجسيد إله يكون ملموساً للبشرية تدرکه الناس وتقابله وجهًا بوجه وبالتالى جعلت لمظاهر الكون آلهة مما أدى إلى تجسيد تلكم المظاهر فى أوثان جسدت الألوهية فى نماذج شتى عبر القرون والأعصار، من الوحدانية إلى عبادة آلهة متفرقة وحتى سلوك الدرب نحو تماثيل تجسد الإله و تبرز أن الممثل للخير لن يستطع أن يشيد بالشر وعلى أساس ذلك فإن ربّ الأرباب قد وضع تدبير الأمور حسب معطياتها فى يد مقدره إحدى الآلهة كى يدبر أمور الخليقة وبعض هذه الأرباب تخلق «الشرور» أحياناً كالجنّ ولذلك يجب عبادة الآلهة المنسوبة إلى تلكم النماذج كى تصان الأنفس البشرية منها وحسب ذلك وجدت آلهة للشرّ وآلهة للخير.

من جانب آخر نلاحظ أن الآلهة المتواجدة على هذا النهج تفتقر إلى كونها خالقاً للكون لأن الربوبية قد تقوم بتدبير أمور الكون ولكن تختلف عن كونه خالقاً للبسيطة ونلاحظ أن كل من كان ينسب تدبير أمر الكون إلى آلهتهم لم يتمكن من انتساب الخلق إليها.

من الملاحظ أن أهل مصر القديمة وذلك من خلال المستندات والمخطوطات المتبقية منهم يشيروا إلى أن ألوهية أرباب تتميز بهذه الميزة الخاصة؛ وقد تشير الرسوم المتبقية من تلكم الحقب إلى أشكال ملموسة ومحسوسة متميزة عن بعضها البعض (بى وارىز، ١٣٨٥: ٥٠٩). ويرى البعض أن أهل مصر القديمة كانوا يعتقدون بتعدد الآلهة فى فترات من تاريخهم وقد تداولت فكرة تعدد الآلهة من مصر القديمة فى تاريخ الفكر البشرى خاصة فى قرى وأرياف هذه البقعة من الأرض التى أصبحت منطلقاً لتكوين المدينية فى كل من الرافدين ومصر ويرجع زمن هذه البادرة إلى الألفية الرابعة قبل ميلاد المسيح عليه السلام (بمفورد باركر، ١٣٨٠: ٥٩).

تتواجد نظرية أخرى حول هذه الظاهرة تشير إلى أن «الإنسان بادر فى بداية أمره إلى عبادة ربّ الكون باعتباره خالق البسيطة وأمر الوجود والخليقة وفعل السماء و الأرض». لم يظهر هذا

الإله في الرسوم المتبقية من تلكم الحقب ولم يمتلك الكهّان والرهبان لتقديم الخدمة له وكان شأنه أولى من أن يعبد بواسطة الإنسان و ذوى النفوس ورويداً رويداً غاب هذا الإله عن النفوس البشرية و وضع فى منأى عن متناول الناس بحيث تصور الإنسان أنه لا حاجة إليه وأخيراً قيل عنه بأنه غاب عن الساحة البشرية (آرمسترانج، ١٣٨٥: ١٩). لذلك نجد فى التاريخ أرباب متفرقة يتناول كل منهم جانباً من الخليفة لتدبير أموره لا خلقه وتكوينه. فى ضوء ذلك نلاحظ أن الصائبة و البراهمة و البوذيين بادروا بتجزئة شؤون العالم إلى قطاعات متباينة فجعلوا لكل قطاع الهأ فظهر إله السماء وإله الأرض وإله الحيوان وإله النبات وإله البحار وأصبحوا يعبدون هذه الآلهة بدلاً من الرب الواحد الأحد و يستشفعون بهذه الآلهة للتقرب من إله الكون وبعيد ذلك بادروا بصنع أوثان لهذه الآلهة تظهر ميزات آلهتهم (الطباطبائي، ١٣٦٣: ٢٩ / ٨٩). من الممكن ملاحظة نفس البادرة عند المصريين من خلال الرسوم المتبقية منهم حيث تجسيد الآلهة بأشكال متنوعة تتمايز عن بعضها البعض. عند دراسة تاريخ الأديان و المعتقدات نلاحظ أن الآثار المتبقية من عصر الحجر وما قبله مستندات تفيد إلى صورة امرأة منقوشة ومحفورة على الرخام و يرى دارسو معالم التاريخ أن الصورة المتبقية من تلكم العصور آن لم تشر إلى امرأة خاصة وإنما تظهر معالم الأمومة التى تتلخص فى الأثوثة (بى وارىز، ١٣٨٥: ٥٠٨).

وأما الآريون لم يبادروا بتقديم القرابين لمعالم الشر والشياطين و لم تكن لديهم طقوس لإزاحة سيئاتهم؟ بل كانوا يقومون بتقديم القران لمعالم الخير لاستجلاب رضاهم و تبجيلهم بغية اكتساب رضاهم (الرضى، ١٣٤٣: ١١٠). فمن هذا المنطلق بدت ظاهرة بروز الأوثان لمعالم الخير والشر على السواء وهذه الظاهرة حسب اعتقادهم لن تكن منافياً مع الاعتقاد بوجود إله واحد وإثر ذلك بدت ظاهرة التنوية وبالتالي برزت بادرة الشرك حيث الأرباب بدلاً من «الرب» وحيث تقسيم مهام العالم بينهم لكل منهم مسؤولية إدارة جزء من العالم و كل هذه الآلهة تبادر بعبادة الرب الواحد وكذلك الإنسان لا مناص له من عبادة الرب الواحد إنما يستشفع بهذه الآلهة كى تقربه من رب الأرباب.

إن سلوك هذا الدرب الوعر أدى إلى ظهور الوثنية فى ثنايا التاريخ حيث عبادة آلهة متفرقة أخذت منأى الوثنية إذ أن الخير والشر تعتبران صورة عامة عن كل ما هو مستحسن وغير مستحسن؛ لكن العلامة الجعفرى يعتقد أن تاريخ الفكر البشرى لن يتواءم مع التنوية يوماً ما فى خضم المعتقدات حيث أن التنوية الحقيقية هى أن نعتقد بوجود إلهين لكل منهما ذات يوصف بواجب الوجود و جامع صفات الخلق و الربوبية لا حد ولا نهاية لكليهما (جعفرى، ١٣٦٢: ٢ / ٤٨). و يشير التاريخ أن «مانى» مؤسس التنوية الذى يراه البعض رسولاً والذى استمرت ديانتته

لألف عام، أن في العالم مظاهر الخير والشر على السواء وهذا ابن النديم هكذا يوصف المانوية حسب تعبيره: «أن منطلق العالم قام على أساس كونين احدهما تجلى في النور والآخر برز من الظلام وكانا منفصلين عن بعضهما البعض» (تقى زاده، ١٣٨٢: ١٧١). وعلى سبيل المثال إن اعتقاد العيلاميين كانت تتبنى على ركائز عبادة مظاهر الكون والطبيعة وتتجلى آلهتهم في أرباب وفور النعم (الرضى، ١٣٤٣: ٣٥). وكذلك تبرز في بعض الشرائح الإنسانية عبادة الشمس وهذا ما تدل عليه الرسوم المتبقية على الأواني الخزفية المنتسبة إلى تلكم العصور والملفت للنظر والانتباه أن حياة قاطنى الفلات كانت تسير على درب الاعتقاد برب واحد فكانوا يعتقدون أن الخليفة تكن حبلها بالاحداث ولن تلد جديداً وعلى خلاف اعتقاد أهل مصر الذين كانوا يعتقدون بذكورية مصدر الحياة فإن قاطنى الرافدين جعلوا هذا المصدر منتسباً للأثوثة (المصدر نفسه: ٤٠).

وكذلك نلاحظ أن الأقوام التي تبعتهم كالسومريين والآثوريين والبابليين تبنا الاعتقاد بتعدد الآلهة وجعلوهم ضمن مراتب كانت ترتبط بالخصب والأجزاء المثمرة من العالم (بى واريى، ١٣٨٥: ٤٠). ومن خلال المخطوطات المتبقية من أقوام مصر وبابل وأرض الرافدين فى الألفية الرابعة قبل مولد المسيح عليه السلام تشيد إلى تدوال تعدد الآلهة فى هذه المناطق من المعمورة (المصدر نفسه: ٥٠٦). فالتوجهات المادية كانت متواجدة منذ أقدم العصور والأزمنة عبر التاريخ والتي كانت تنسب مصدر العالم للمعالم المادية وهكذا سايرت هذه التوجهات مع المنطلقات الفكرية القائلة بماوراء الطبيعة وتبنت الألوهية وعبادة الرب (مطهرى، ١٣٥٠: ١٢). لكن المنطلقات الآتفة الذكر لن تتبدل إلى مدارس فكر ولو أمعنا النظر فى خلفية الفكر المادى لن نرى لهذا المنطلق سابقة مفعمة بالفكر المبرمج بل تظهر بصورة شذوات عبر الزمن لن تلفت الانتباه بصورة موسعة ومن جانب آخر فالتوجه والتمعن فى فكرة الألوهية و الوحدانية وعبادة الرب لها تاريخ عريق ترجع بداياته إلى زمن أنبياء كنوح و ابراهيم عليهما السلام حيث اشادتهما بالتوحيد وحتى فى عصر أنبياء كموسى وعيسى سلام الله عليهما نلاحظ مداولة عبادة الرب على مر العصور والأزمنة بصور مختلفة وكما نوهنا سابقاً أن تواجد فكرة التوحيد وعبادة الإله الواحد كان متداولاً عبر العصور البائدة. من هذا المنطلق فلو أردنا أن نستعرض مسار الفكر حول التوحيد ومعرفة الرب وخالق الكون نلاحظ فى الوقت نفسه محط أقدام الفكر البشرى فى تطوير معرفة الإنسان بما يحيطه.

وقبل الاستدراج فى هذا البحث علينا أن نلاحظ أن العبودية تواجدت منذ ابتداء الخليفة وقبل خلق الإنسان. يشير الله إلى هذه النقطة الهامة فى المصحف المرتل بالآية الكريمة: «بُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (الجمعه: ١). حيث أن الإله يشيد

بالفطرة في مجال معرفة الخليقة والكون حيث توجه الإنسان إلى التوحيد والوحدانية من منطلق الفطرة؛ لكن تطور الفكر البشرى أدى إلى ظهور المدارس المختلفة وبعبارة أخرى لو أننا أردنا استيعاب مراحل تطوير الفكر البشرى سوف نواجه مراحل هذا التطور حسب ما يلي:

١. العهد العتيق؛

٢. القرون الوسطى؛

٣. عصر الأنبثاق؛

٤. عهد الفكر (القرن السابع عشر)؛

٥. عصر التنوير (القرن الثامن عشر)؛

٦. عصر الأمنيات و الفكر المأدى (القرن التاسع عشر)؛

٧. العهد الحديث؛

٨. عصرنا (ويكى بديا، الموسوعة الحرة).

حيث برزت وتواجدت المدارس الفلسفية لدراسة الذات الالهية خلال هذه العصور والعهود لكن الخوض في هذه البوادر والظواهر تستلزم بحثاً مشبعاً يقع خارج نطاق ما نحن فيه حيث أنّ الدراسات المؤمى اليها تقع بعيداً عن متناول الأيادى البشرية.

من الممكن أن نعتبر الفكر المادى ونفى الذات الإلهى مساراً لأجتياز ما كانت تشوب الذهن الإنسانى و بالرغم من كل ذلك فإنّ الرؤى المذكورة لن تكون مدرسة خاصة بل نضجت على أساس فكرة أو رؤية بيد أنه من المحتمل اعتبار نضوج هذه الرؤى منذ اندلاع عصر التحديث حيث برز إلى الوجود مدرسة تناولت رؤية جديدة إلى الخليقة و الخالق. المراد من المدرسة الفكرية هو تحديد اطار فكرى مرتكز على اصول مرتسمة بغية الوصول الى هدف معين يتجلى فى تطوير الفكر. و من المحتم أن هذه المدرسة لها مؤسس استفاد من تجارب الماضين كى يضع أسسها. فى ضوء ذلك لن تكن المدرسة خليقة لحظة عابرة و لن يكن مؤسسها من يتابع هذا النمط من الفكر. انما دراستنا تتناول نمطاً معيناً من الفكر يمكن انتسابه الى عصر التنوير. ظهر تفكيك المدارس الفكرية حينما تطرق الذهن إلى أن هل المادة تكون سابقة للمعنى؟ وهل أصل الشى يسبق فكرته؟ فالذين يعطون الأولوية للمادة ويعتبرونها هى الموجدة للمعنى ويعدون التعيين منطلقاً للذهن يعدون من الماديين والماترياليين والفرقة التى تتبنى العكس أى ترى أن المعنى هو مُنشئ المادة هم المتأفزيون والمتمسكون بالمذاهب السماوية (مطهرى، ١٣٦٩: ٤٤٣). نلاحظ أن عدداً من المصنّفين يسمون الفرقتين بالطبيعيين وماوراء الطبيعيين.

فكلما يمتُ بصلة الى الطبيعة وكل مدرسة تعتبر الطبيعة مصدراً للخليقة هى الماتريالية والتى تأخذ تسميات متنوعة خرجت منها تأسيس مدارس الفكر.

فإحدى هذه المدارس هى مدرسة اللادريون (Agnosticism) حيث واضعها توماس هاكسلى و روبرت أنجروزل والخيام و أبو العلاء المعرى ومدرسة اللاألوهية (Atheism) التى شيدها برتراندراسل ومدرسة نفى الإله واستنكار الرب Non theists والتى وضع أساسها مايكل مارتين وأخيراً المدرسة التى تعرف بمخالفة الإله ومواجهة الرب Antitheism على أيدى مفكرها كريستوفر هجينز وریشارد داوكينز.

اللاأدرية (Agnosticism) هى مدرسة فلسفية تعالج الصحيح والخطأ فى شؤون ماوراء الطبيعة كالألهيات و الحياة بعد الموت و وجود الخالق والمعالم الروحية والروحانية و تستشكك وتشكك فى حقيقة العالم و تتبنى عدم مداولة معرفة حقائق الوجود وترى هذه المدرسة أن معرفة جزء أو كل حقيقة الوجود بأكملها أمر مستصعب الثيل ونلاحظ أن كانت و هيوم قد وضعا هذه الفلسفة (ويكى بيديا، الموسوعة الحرة).

اللاألوهية (Atheism) هى المدرسة التى تعتقد بإنكار وجود الآلهة فهذه مدرسة تنكر وجود الخالق بصورة عامة. نلاحظ أن ٢/٣٪ من النفوس البشرية تذهب على هذا النمط من الفكر بينما يقارب نسبة الذين يصفون أنفسهم بعدم أتباع دين ما، ما يقارب ١١/٩٪ من النفوس البشرية (ويكى بيديا، الموسوعة الحرة).

استنكار الرب (Non Theists) أى عدم الرضوخ للخالق يطلق على كل من يعتقد بعدم وجود خالق للكون و كذلك على الذين لا يعيرون اهتماماً بوجوده وعدمه.

مخالفة الإله (Antitheism) ضرب من رؤية الكون تتبلور على أساس التشكيك فى وجود الخالق وينفى تواجده ويطيح بكل الأفكار المثبتية إثبات وجود الخالق و يشير إلى أن فكرة وجود الخالق تكن ذات طبيعة تخريبية وعلى ذلك يجب نفيه بالمرّة وممن تبنى هذه الفكرة هما كريستوفر هجينز، وریشارد داوكينز (المصدر نفسه).

إنّ ما يتعلق بقبول الإله والإعتقاد بماوراء الطبيعة يفيد إلى وجود ذات منتهم إلى الإله الواحد الذى استوعبته البشرية من خلال ماوراء الطبيعة يشبه ما أشار اليه أفلاطون فى «مُثله» و هى نظرية تستوعب كل المظاهر المادية للكون. فالوجود الذى يتجلّى فى مُثُل أفلاطون يحتوى على أربعة ميّزات هى: الجامعية، الوحدة، الكمال و الثبات (فشاهى، ١٣٥٤: ٢٢).

لكن إله أرسطاطاليس يكون مجرداً من المادة بل يحتوى على الفكر (الذهنية) والعينية لكن لم يكن أزلياً بل يعتبر العامل المحرّك للطبيعة حيث أنّ قوة تحريكه تكن نابعة عن

ذاته فإنه أرسطاطاليس هو الغاية القصوى لكل الخليقة والإنسان يكن أقرب موجود إليه (المصدر نفسه: ٣١).

والله أصحاب مدرسة الفكر والعقل كأبي بكر محمد بن زكريا الرازي والذي ينفي نمط ماوراء الطبيعة التي وضعها أرسطاطاليس يرى الخليقة نتاج خالق الكون حيث يشير هو الآخر إلى المادة لن تصدر عن وجود روحاني بحت وهو يرى بأن العقل والفلسفة هم العاملان الأساس لمعرفة الكون حيث يقول يشيد: «أنّ العقل هو العامل الوحيد الذي يرشدنا إلى الحقيقة البحتة» (أرمستراخ، ١٣٨٥: ٢٧٥).

إنّ الرؤية الوحيدة التي ترشدنا إلى معرفة الذات الالهية هي الرؤية التي يتبناها الفكر والعقل هو العامل الوحيد الذي يرشدنا إلى الطريق التوحيدي الذي يرتسمه الدين.

وأخيراً فإن أصحاب العرفان والمعرفة تمكنوا من الوصول إلى الحقيقة عبر الشهود التوحيدي فتبنوا عرفان الخالق على أساسه. فالتجربة العرفانية تمتلك ميزات خاصة تشترك فيها كافة الديانات السماوية فهذا النمط من الفكر والرؤية يتركز على رحلة نفسانية تقع خارج نطاق المشهودات الخارجية وحتى النصارى أى المسيحيون الذين يتبنون فكرة التثليث والتجسيد وبذلك يقعون فى منأى عن الفكر التوحيدي يمتلكون تجربة أو تجارب عرفانية لها مشتركات مع ما يتبناه اليهود والمسلمون (المصدر نفسه: ٣٥٠). وفى هذا الصخب نلاحظ أن إله على عليه السلام يحمل صبغة العرفان والعقل والحقيقة حيث يرتسمه فى خطبته كما يلي:

أول الدين معرفته وكَمال معرفته التصديق به وكَمال التصديق به توحيدُهُ، وكَمال توحيدُهُ الإخلاص له، وكَمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزأه ومن جزأه فقد جهله ومن جهله فقد أشار إليه ومن أشار إليه فقد حده ومن حده فقد عدّه ومن قال «فيم» فقد ضمّنه ومن قال «علام» فقد أخلى منه. كائن لا عن حدثٍ موجودٍ لا عن عدمٍ مع كل شئٍ لا بمقارنه وغير كل شئٍ لا بمزايله فاعل لا بمعنى الحركات والآلة بصيرٌ اذلاً منظورٌ إليه من خلقه، متوحدٌ إذ لا سكنٌ يستأنسُ به ولا يستوحشُ لفقداه (نهج/البلاغة: الخطبة الاولى).

يمكن اعتبار كلام على فصل الخطاب بهذا الشأن لمعرفة الخالق. لكننا لن نتمكن من وضع حد للفكر البشرى إذ يذهب هذا الآخر لدربه كى يستمر ويديم التاريخ فى مساره نحو معرفة خالق الكون بالرغم من وجود تحديات للفكر الألوهى حيث كان ولا يزال يجرب التواجد لكن الرؤية المتواجدة لدى الإنسان تدل على تطوير الفكر الإلهى يوماً بعد يوم.

٤. النتيجة

١. حاجة الإنسان إلى عبودية الرب تكون ظاهرة نابعة من الفطرة البشرية حيث المسار التكاملى لهذه الظاهرة واجتياز البشر مراحل متفاوتة عبر التاريخ.
٢. بالرغم من ظهور الأنبياء لتبيين التوحيد فى كل المجالات لا زلنا نواجه تحدياً خطيراً وهو جدل الموحدين و المشركين فى أن الرؤية الدينية تستوعب جميع المجالات أم لا؟
٣. يجب على الفلاسفة والمفكرين أن يسلكوا درب معرفة الحقيقة إثر نزول شأن التمسك بالدين وهذه بادرة تعانى منها المجتمعات البشرية حين أن ظاهرة فطرة الدين لدى الوجود الإنسانى هى ظاهرة تتجلى لدى البشرية جمعاء وتنفى الصفح عن الدين فى الوجود البشرى حيث الحاجة إلى وجود عال له مرتبة فوق البشر.
٤. استكمال معرفة الرب وعبادته يرجع إلى قصة تواجد الإنسان على وجه البسيطة فاستيعاب الخلق بوجود الخالق كان يلوح فى سماء الفكر منذ فجر تواجد الخليقة ولكن بما أن الإعتقاد بالغيب يكون بحاجة إلى استدراك عميق للعالم وشهوده وتبني علم حضورى لا يمكننا أن نستسقيه عن طريق علم حصولى حيث أن هذا يمكنه إثبات الخالق دون التمكن من الوصول إلى يقين نكن بحاجة اليه.
٥. البشرية جمعاء قد سلكت درباً وعرأ للوصول الى خالق قادر مدبر واحد أحد رب الجميع فالإله يكون الهاً ورباً توصلت البشرية إلى حقيقته عبر دروب هداهم الخالق إليها. فهذا المسلك يرشدنا إلى عبودية الرب، والأمر كذلك عند تبيننا للتوحيد ومعرفة الإله الواحد الفرد.

المصادر

القرآن المجيد.

- آرمسترانج، كارل (١٣٨٥هـ.ش). تاريخ الفكر الألوهى، طهران: أكاديمية العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية. بامفورد باركر، هنرى (١٣٨٠هـ.ش). الآلهة والبشر، طهران: القصيدة.
- بى واريز، فيليب (١٣٨٥هـ.ش). موسوعة تاريخ الفكر البشرى، نخبة من المترجمين و المنقحين، طهران: سماء.
- تقى زاده، سيد حسن (١٣٨٢هـ.ش). معرفة مانى، اشرف ايرج افشار، طهران: قومس.
- جان ناس (١٣٥٤هـ.ش). تاريخ الأديان، الطبعة الثالثة، نشر بيروز، طهران.
- جعفرى، محمد تقى (١٣٦٢هـ.ش). تفسير نهج البلاغه، طهران: الثقافة الاسلامية
- رضى، هاشم (١٣٤٣هـ.ق). الديانة القديمة الإيرانية منذ ظهور زرتشت، طهران: مؤسسة نشر آسيا.
- روجه جارودى (١٣٦٢هـ.ش). معرفة فكر هبغل، طهران: مؤسسة نشر آگاه.

- صباغ، عماد، الأحناف (د.ت). *دراسة في الفكر الديني التوحيدى في المنطقه العربيه قبل الإسلام*، نشر محدود، جامعة الأزهر.
- طباطبائي، سيدمحمدحسين (١٣٦٣ ه.ش). *الميزان في تفسير القرآن*، قم: مؤسسة النشر العلمى و الثقافى.
- غرر الفصاحة (١٣٨٨ ه.ش). *مؤسسة النشر لإمام العصر (عج)*.
- فشاهى، محمدرضا (١٣٥٤ ه.ش). *مدخل إلى الفكر في العصور الوسطى*، طهران: نشر غوتنبرج.
- فوكو، ميشال (١٣٨٢ ه.ش). *معرفة جذور الفكر*، طهران: نشر جامعة طهران.
- المجلسى، محمداقبر (٣٦٩ ه.ش). *بحار الأنوار*، طهران: دائرة النشر الإسلاميه.
- مطهرى، مرتضى (١٣٥٠ ه.ش). *أسباب التوجه نحو الماديه*، مشهد: طوس.
- مطهرى، مرتضى (١٣٦٩ ه.ش). *مجموعه المؤلفات*، طهران: صدرا.
- نهج البلاغه* (١٣٧٧ ه.ش). طهران: نشر و پژوهش فروزان روز.
- نهج الفصاحة* (١٣٨٥ ه.ش). طهران: أكاديميه العلوم الإنسانيه و الدراسات الثقافيه.
- ويكيبيديا، الموسوعه العلميه الحرة.

